المبحث الثانى

رأى الغـزالــى

وُلدَ الغزالى بمدينة طوس، أكبر مدن خراسان، فى بلاد فارس؛ فى عام ٤٥٠ هـ - ١٠٥٩م. وتوفًى فى عـام ٥٠٥ هـ. وهو ذلك المفكر الواسع العلم والاطلاع فى عصره ولكنه كان ضد الفلاسفة، وكان يحاربهم فى آرائهم، التى كان يرى أنها تخالف الشريعة فى كثير منها. وكان لا يدرى أنه بطريقته هذه، فى مناقشة الفلاسفة، والرد على آرائهم، قد أصبح فيلسوفًا كبيرًا، ومفكرا عميقًا. فقد كان سببا هامًّا فى إثراء الفكر، فى هذه المرحلة من الزمن نتيجة مناظراته ومناقشاته، مع كل المفكرين، فى عصره .. فى كل الأمور.

أولا: رأى الغزالى فى مشكلة القضاء والقدر:

منذ البداية، ينقد الغزالى الآراء الأخرى فى هذه المشكلة، ويهاجم البعض منها بشدَّة، فيقول: « والقدريَّة ... أنكروا قضاء الله ورأوا الخير والشرَّ من أنفسهم. أرادوا بذلك تنزيه الله عن الظلم وفعل القبيح، ولكنهم ضَلُّوا إذْ نسبوا العجز إلى الله تعالى فى ضمن ذلك ولم يدروا ... والجبرية اعتمدوا على القضاء، ورأوا الخير والشرّ من الله، ولم يَروْا من أنفسهم فعلاً ... كما لم يَرَوْا من الجمادات أرادوا بذلك تنزيه الله تعالى عن العجز فضلُّوا؛ إذْ نسبوا الظلم إليه تعالى فى ضمن ذلك وأضلُّوا سُفاءَهم. فكانوا يعصون الله وينسبون إلى الله. ويبرئون أنفسهم عن الذم واللُّوْم، كالشيطان حيث قال: ﴿ **فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُم صِراطَكَ الْمُسْتَقِيم** ﴾ [1] [الأعراف: ١٦]

ويستمر الغزالى فى هجومه العنيف على الجبرية، فيقول: « فينبغى للباحث معهم أن يضربهم ويمزِّق ثيابهم وعمائمهم، ويخدش وجوههم، وينتفُ أشعارهم

(١) الغزالى - الأربعين فى أصول الدين ص ١٩ - مكتبة الجندى - الحسين - مصر سنة ١٩٦٥.

وشواربهم ولحاهم. ويعتذر بما اعتذر به هؤلاء السفهاء فى سائر أفعالهم القبيحة الصادرة عنهم» (١).

ويستمر الغزالى فى هجومه، مُتَّجهًا إلى المعتزلة، فيقول عنهم: «والمعتزلة أضافوا الشرَّ فقط إلى أنفسهم. وأثبتوا لأنفسهم الاختيار الكلى، تحرزًا من نسبة القُبْح والظلم إلى الله؛ ولكن نسبوا إلى الله العجز من ضمن ذلك ولم يدروا» (٢).

ويستمر فيقول: «وأما أهل السنة والجماعة، فتوسَّطوا بينهم (أى بين الجبرية والمعتزلة) فلم ينفوا الاختيار عن أنفسهم بالكلية ولم ينفوا القضاء والقدر عن الله تعالى بالكلية، بل قالوا: أفعال العباد من الله من وجه، ومن العبد من وجه، وللعبد اختيار فى إيجاد أفعاله» (٣).

ولعل هذا الرأى الأخير الذى عرضه الغزالى، هو الذى مال إليه. وسنرى ذلك فيما بعد؛ وهو رأى الأشاعرة – كما عرفنا من قبل.

بعد أن عَرَضَ الغزالى، الآراء المختلفة الرئيسية، مُعلِّقًا عليها، يَعْرِضُ رأيه هو تفصيلاً، فيقول: «إعلم أن قضاء الله على أربعة أوجه: قضاء لا تعات – وقضاء المعاصى – وقضاء النِّعَم – وقضاء الشدائد. والمذهب المستقيم فى ذلك (أى الرأى السليم فى نظره)، إذا قُضِى للعبد الطاعة، فعليه أن يستقبله بالجهد والإخلاص حتى يكرمه الله بالتوفيق والهداية، لقوله تعالى ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾ [العنكبوت: ٦٩]، يعنى الذين جاهدوا فى طاعتنا وفى ديننا لنوفقنَّهم لذلك ... وإذا قضى (عليه) امعصية، فعليه أن يستقبله بالاستغفار والتوبة والندامةْ من صميم الفؤاد، لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾ [البقرة: ٢٢٢]. وإذا قضى [له] النعمة، فعليه أن يستقبله بالشكر

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المرجع السابق ص ١٩.

(٣) المرجع السابق ص ٢٢.

والسخاء حتى يكرمه بالزيادة، لقوله تعالى ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]. وإذا قضى الشدَّة، فعليه أن يستقبله بالصبر والرضا حتى يعطيه الكرامة فى الدار الآخرة. لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]. وقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] (١).

ويعرض الغزالى رأيه فى مكان آخر، فيقول على لسان علاء الدين فى شرحه للمصابيح: «والمذاهب الحق، هو أن المؤثر مجموع القدرتين، قدرة الله، وقدرة العباد. فالأفعال الصادرة عن العباد، كلها بقضاء الله وقدره .. ولكن للعباد اختيار. فالتقدير من الله والكَسْب من العباد. وهذا المذهب وسط بين الجبر والقَدَر .. وعليه أهل السنة والجماعة» (٢).

وكما سبق القول، فإن هذا هو رأى الأشاعرة عمومًا، والذى كان الغزالى يميل إليه دائما، فهو أشعرى بارز.

وبعد أن بيَّن الغزالى مفهُوم القضاء والقدر، فيما يتعلق بالإنسان؛ فإنه بيَّن مفهومه فيما يتعلق بكل المخلوقات؛ فيقول إنها: «تدبير رب الأرباب، ومُسبِّبُ الأسباب. أصل وَضْعَ الأسباب لتتوجَّه إلى المسببات، حُكمُه. ونَصْبه الأسباب الكلية الثابتة المستقرَّة التى لا تزول ولا تحُول كالأرض والسموات السَّبْع والكواكب والأفلاك وحركاتها المتناسبة الدائمة التى لا تتغير ولا تنْعدم إلى أن يبلغ الكتاب أجله، قضاؤه - كما قال: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢]. وتوجيهه هذه الأسباب بحركاتها المناسبة المحدودة المقدَّرة المحسوبة إلى المسببات الحادثة ... لحظةً بعد لحظة، قَدرُه، فالحكم هو التدبير الأولى (هكذا - ولعلها الأزلى)» (٣) ويستمر الغزالى، فى هذا الاتجاه، إلى أن يقول: «ولذلك لا يخرج شئ عن قضائه وقدره» ونتفق مع

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢

(٢) المرجع السابق: ص ٢٣.

(٣) المرجع السابق ص ٢٤.

الغزالى، فى أن كل هذه الأشياء الكونية، قضاءً جبريا أو ما يسمى «بالجبرية الكونية».

ويزداد اقتراب الغزالى من الدخول فى دائرة فرقة الجبرية عندما يقول: «كل حادث فمُخْتَرع بقدرته. وكل مُختَرع بالقدرة مُحتاج إلى إرادة تُصرِّف القدرة إلى المقدور، وتُخصِّصُها به. فكل مقدور مراد، وكل حادث مقدور، فكل حادث مراد. والشر والكفر والمعصية حوادث، فهى إذًا لا محالة مرادة. (هى مرادة من الله كحوادث، لا كمعاصى وشرور).

فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. فهذا مذهب السلف الصالحين، ومُعْتَقَدُ أهل السنَّة أجمعين. وقد قامت عليه البراهين»[1].

ويدعم الغزالى رأيه السابق .. من أن كل الحوادث مُرادةً ومُخترعةً من الله تعالى بقدرته؛ وبما أنَّه يَعتَبِرُ الشرور والمعاصى من ضمن الحوادث؛ فَيُبرِّر خلق الله للشرور والمعاصى بقوله: «أما المعتزلة فإنهم يقولون إن المعاصى كلها والشرور حادثة بغير إرادته، بل هو كارهٌ لها [أى الله سبحانه] ومعلوم أن أكثر ما يجرى فى العالم، المعاصى، فإذا ما يكرهه أكثر مما يُريده. فهو إلى العجز والقصور أقرب بزعمهم - تعالى رب العالمين عن قَوْل الظالمين. فإن قيل .. فكيف يَأْمُر بما لا يُريد، وكيف يُريد شيئا وينهى عنه، وكيف يريد الفجور والمعاصى والظلم والقبيح، ومُريد القبيح سفيه. قلنا: إذا كشفنا عن القبيح والحَسَن، وبَيَّنا أن ذلك، يرجع إلى موافقه الأغراض ومخالفتها، وهو سبحانه مُنَزَّه عن الأغراض، فاندفعت هذه الإشكالات»[2].

(إذًا كان من المفروض أن يقول، أن هذه الشرور والمعاصى مخلوقة ومرادة من الله - كحوادث وليست كشرور أو معاصى).

---

(١) الغزالى - الاقتصاد فى الاعتقاد ص ٥٨ - مطبعة صبيح بالأزهر - القاهرة سنة ١٩٦٢م.

(٢) المصدر السابق: ص ٥٨.

(ثم تحولت إلى شرور ومعاصى حسب أغراض الناس) .

ومعنى هذا، أن الذى يجعل هذه الحوادث، شروراً ومعاصى، هو أغراض البشر – التى تُوجِّه هذه الحوادث .. فتجعل منها شروراً ومعاصي. أمَّا الله سبحانه، فإنه يخلقها كحوادث مُنزَّهةً عن الأغراض. ومن هذا نستنتج أن الله تعالى، لا يخلق الشرور والآثام والمعاصى؛ وإن كان يخلقها كحوادث .. يحوِّلها الإنسان بإرادته الحرة التى وهبها الله له، إلى شرور ومعاصى وهنا لا تكون المعاصى والشرور، مُرادةً من الله، كما قال الغزالى؛ بل مرادةً من الناس، حسب أغراضهم وأهوائهم.

ولذلك .. فإن مُغالاة الغزالى فى هَذَا الاتجاه، أدَّتْ به فى النهاية، إلى نَفْى السببيَّة. فالغزالى يقول بأن الله، هو الفاعل على الحقيقة لكل شئ فى الوجود فـ « الاقتران بين ما يُعتَقَدُ فى العادة سببًا وما يُعتَقَدُ مُسبَّبا، ليس ضروريًّا عندنا. بل كل شيئين .. ليس هذا ذاك ولا ذاك هذا، ولا إثبات أحدهما متضمن لإثبات الآخر، ولا نفيه مُتضمَّن لنَفْى الآخر. فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر مثل: الرى والشرب، والشبع والأكل والاحتراق ولقاء النار والنور وطلوع الشمس والموت وجزّ الرقبة والشفاء وشرب الدواء وإسهال البطن واستعمال المسهِّل .. وهلم جرا إلى كل المشاهدات من المقترنات فى الطب والنجوم والصناعات والحرف وأن اقترانها لما سبق من تقدير الله سبحانه لِخَلْقها على التَّسَاوق، لا لكونه ضروريًّا فى نفسه، غير قابل للْفَوْت .. بل لتقدير وفى المقدور: خَلْق الشبع دون الأكل. وخَلْق الموت دون جزّ الرقبة وهلم جرا إلى جميع المقترنات » [1] والغزالى يقصد، أن كل حدث يحدث فى الكون؛ هو من فعل الله المباشر. لذلك؛ فإنه من الممكن أن تحدث أشياء

---

(١) ابن رشد – تهافت التهافت – تحقيق سليمان دنيا – ص ٧٧٧ – دار المعارف – بمصر سنة ١٩٦٥م.

مخالفةً لقانون الأسباب والمسبَّبات. ذلك لأن الله سبحانه، هو الذى وضع الخواص فى الأشياء، التى تظهر فى صورة أسباب ومسببات لذا فإن إرادته وقدرته سبحانه، تستطيع أن تنزع هذه الخواص وَقْتمَا شاء.

والغزالى يذكر مثالاً على ذلك، وهو احتراق القطن عند ملاقاة النار؛ فيقول: «إنَّا نُجوِّز وقوع الملاقاة بينهما دون الاحتراق. ونجوِّز حدوث انقلاب القطن رماداً مُحترقًا دون ملاقاة النار. وهم ينكرون جوازه»[1]. وهو يقصد الفلاسفة الذين كان يهاجمهم فى فكرة السببية، مثل الفاربى وابن سينا.

ويطبق الغزالى – فى النهاية – هذا المفهُوم على الإنسان؛ رغم اختلاف طبيعة الإنسان عن باقى المخلوقات؛ لكنه يؤكد أن فعل العَبْد، وإن كان مُكْتَسَبًا من العبْد؛ إلا أنه – فى نفس الوقت – مُرادٌ لله تعالى. ولعلَّ فى هذا نوعًا من التناقض الواضح. فنجده يقول: «إن فعل العَبْد وإن كان كَسْبًا للعبد فلا يخرج عن كونه مُرادًا لله سبحانه. فلا يجرى فى المُلْك والملكوت طرفة عين ولا لفْتَة خاطر ولا فَلْتَةَ ناظر إلاَّ بقضاء الله وقُدرته، وبإرادته ومشيئته ومنه الخير والشر. والنفع والضرّ. والإسلام والكفر. والعرفان والنّكْر والفوز والخسران. والغواية والرُّشْد. والطاعة والعصيان. والشِّرْك والإيمان. لا رادَّ لقضائه ولا مُعَقِّبَ لحكمه. يُضل من يشاء ويهدى من يشاء لا يُسأَلُ عمَّا يفعل وهم يُسْأَلون. ويدل عليه من النقل قول الأمة قاطبة ... ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وقوله عز وجل: ﴿ **أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا** ﴾» [الرعد: ٣١][2].

ورغم إيماننا القوى بهذه المعتقدات؛ إلاَّ أننا نجد كثيرًا من عامَّة المسلمين يؤمنون بها دون فهمها وتدبُّر معانيها الحقيقية، ومعرفة جذورها. وهذه مهمتنا فى هذه الدراسة .. أن نوضح، كيف نؤمن بهذه المعتقدات عن فهم ووضوح فى

---

(١) الغزالى – تهافت الفلاسفة – ص ٦٧ – المطبعة الإعلامية بمصر – ١٣٠٣ هـ.

(٢) الغزالى – إحياء علوم الدين – جـ ١ ص ١١٦، ١١٧ – مطبعة مصطفى الحلبى بمصر سنة ١٩٣٩م.

الرؤية، ومعرفة الأصول الحقيقية للإيمان بها؛ فتطمئن قلوبنا، ويبتعد عنها أى شك شيطانى، يمكن أن يأتى إليها، من أى جانب. لذا .. فإنه سوف يأتى تحليل لكل هذه الأفكار بطريقة موسَّعَة، فيما بعد.

هذا هو رأى الغزالى، فى مشكلة القضاء والقدر. ولم أحاول مناقشته أو التعليق عليه أو تحليله، أثناء عرضه؛ إلا من لمحات ضرورية خاطفة تساعد على فهمه بوضوح. كما يمكن الإشارة هنا؛ إلى أن هناك أفكاراً مشابهةً لأفكار الغزالى السابقة، قد ظهرت عند بعض الفلاسفة المحدثين. فقد نَفَى كلٌّ من الفيلسوفَيْن – الفرنسى «مالْبِرانْسن»، الذى أتى بعد الغزالى بحوالى ٥٨٠ عامًا، والإنجليزى «ديفيدهيوم»، الذى أتى بعد مالبرانسن بحوالى سبعين عامًا؛ الارتباط الضرورى بين ما يسمَّى سببا وما يسمى مُسبَّبًا: «إن مالبرانسن يقول بأن السبب الحقيقى الذى يوجد الشئ به، هو الله وحده [وهو بذلك ينفى الإرادة عن أى مخلوق ولا يجعلها إلا لله وحده]؛ فإن الحقيقى فى رأيه، هو ما يرى العقل ارتباطًا ضروريًّا بينه وبين ما ينتج عنه. وهو مالا يراه العقل إلاَّ لله الذى يكون عن إرادته وحدها كل شئ. ومن ثَمَّ فإن الإنسان حين يُحرِّكُ ذِراعَيْه مثلاً، يفعل هذا بقوة ليست فى الحق منه» (١).

ثانيا: مناقشة رأى الغزالى وتحليله ..

إذا ألْقَيْنا نظرة شاملة، على آراء الغزالى السابقة، فى مشكلة القضاء والقدر، ودَقَّقْنا الملاحظة فيها؛ فإننا سنجد التناقض واضحًا وصريحًا ... وأيضا سنجد فيها التَردُّد، فَنَجْده يميل مرةً إلى هنا، ومرةً إلى هناك. وحينما نحاول الكشف عن ذلك؛ فإننا نجده يقول: إن أفعال الإنسان، يمكن أن تكون مُكتسبةً له ... وفى نفس الوقت مرادةً لله تعالى كيف إذاً يكون ذلك؟ .. وماذا يبقى للإنسان، الذى خلق الله له عقلاً، وأعطاه إرادة وحرية ..؟ كيف يستخدم

---

(١) محمد يوسف موسى – بين الدين والفلسفة – ص ١٩٤ – دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٩م

الإنسان هذه المعطيات التى أعطاها إيَّاهُ الله ..؟ إنه من الممكن الاتفاق مع الغزالى، على أن تكون الأفعال مخلوقة لله – ولكن – من جانب آخر – تكون مرادةً من الإنسان.

فالأفعال موجودة أمامى، على هيئة مخلوقات صامتة .. موجودات .. سخَّرها الله للإنسان .. كالنار وحرارتها، والشمس وضوؤها، والمياه والأرض، والمعادن والنباتات ... إلخ ﴿ **أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً** ﴾ [لقمان: ٢٠]

فحينئذ .. لا بُدَّ أن تعمل الإرادة الإنسانية .. التى يُحرِّكُها العقل، لتحقِّق إرادة الله العظمى، حين أراد سبحانه، أن يكون هناك إنسان، خليفة له فى الأرض. فيه خيوط من بعض صفاته تعالى. ومن هذه الخيوط .. الإرادة والعقل. فتختار الإرادة ما تريد من هذه الأشياء، وتُركِّبها حسب أغراضها، وتكوِّنَ منها أفعالاً .. إمَّا خيرة وإمَّا شرِّيرَة.

فهى إذًا .. إرادة الله العظْمَى، فوق إرادة الإنسان الصغرى .. التى تعمل فى مجالها الضيِّق المحدود، بإذن من الله تعالى. فتختار الأفعال المُسْتَطَاعَة – ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾[البقرة: ٢٨٦] ومن خلال هذا الاختيار، تنتج الأفعال الخيِّرة والأفعال الشرِّيرَة. وتبرز أيضا .. نظريَّة الثواب والعقاب .. والجنة والنار .. والآخرة. فهذه كلها أمور ارتبطت بالإرادة الحرَّة للإنسان. ولم يذكر الغزالى، أى شئ، عن هذا الارتباط الضرورى، بين هذه الأمور، وبين القضاء والقدر.

وبعد هذا .. فإننا إذا ألْقَيْنا الضوء، على هذه المفاهيم، التى ذكرها الغزالى، والتى أجمع عليها سلف الأمَّة من الصالحين، والتى هى مُعْتَقَدُ أهل السنَّة والجماعة أجمعين؛ والتى يدل عليها قول الأمَّة قاطبة « ما شاء الله كان وما لم يَشَأْ لم يكن »، وقوله تعالى﴿ **أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا** ﴾؛ وأنه سبحانه

﴿ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [النحل: ٩٣] وأنه لا فاعل إلاَّ الله تعالى؛ فهى كلها مفاهيم صحيحة، ولا أحد يعترض عليها - كما سبق القول؛ لكن .. ! .. على أساس: أنَّ ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر: ٣٨] و﴿ ... كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور: ٢١]. وكذلك .. على أساس، أن ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨]. لأننا لو ذكرنا هذه المفاهيم وجدها .. وسَكَتْنا؛ فإن هذه العبارات، بصورتها هذه، تدل تمامًا على الإجبار؛ ويحتار الناس فى فَهْمها. فكيف تكون الأمور محدَّدَة هكذا بإرادة الله ومشيئته، ثم بعد ذلك .. نُحاسَبُ على أفعالنا ..؟ .. وهذا ما يؤدى إلى الخوف على المصير، والقلق والشك، وعدم اليقين، وزعزعة الإيمان.

وهنا يظهر سؤال: كيف نوفِّق بين هذَيْن المعنَيَيْن، اللذين يكاد أن يكونان متضادين فى ظاهرهما ..؟ .. معنى الجبر فى المفاهيم الأولى .. ومعنى المسؤولية والاختيار فى المفاهيم الثانية ..؟ لا يتحقق ذلك .. ولا نصل إلي إجابة، إلاَّ بالنفاذ إلى أعماق هذه المفاهيم، مصحوبًا بإيمان عميق، ويقين كامل .. بالعدالة الإلهية .. وبالرحمة واللطف الإلهيَيْن؛ حتى تتبين الحقيقة الكبرى .. التى لا شك فيها، للناس، عامَّتهم وخاصَّتهم؛ ويزول الالتباس، وتستريح القلوب والعقول، ويزول الشك والقلق، ويطمئن الإنسان على المصير .. ويُؤْمِنُ بهذه المفاهيم كلها، عن فهم ووَعْى.

فالقَوْل، بأنه لا فاعل إلاَّ الله، لا بُدَّ أن يتوافق، مع القَوْل، بأن ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ و﴿ ... كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ ولا بُدَّ أن نبيِّن كيفيَّة هذا التوافق. فكل فِعْل أو حَدَث يحدث فى الكون، فهو من فعل الله تعالى. حتى الإنسان .. فإن أى حركة أو فعل منه .. فهو من الله لأن الإنسان نفسه من صنع الله؛ فلا يستطيع أن يرفع يده أو رِجْلَه .. أو حتى يطرف بعينه أو يُفكر بعقله .. إلاَّ بقدرة من الله تعالى، يمدُّه بها. ومن هنا يتحقَّق القَوْل بأنه لا

فاعل إلاَّ الله سبحانه، ناهيك عن الحوادث الأخرى، التى تحدث فى الطبيعة، فكلها من فعل الله.

إلاَّ أن الإنسان – وإن كانت كل أفعاله من الله .. يمدُّه بها، فإن هناك خيطًا هامًّا .. هو «الإرادة الإنسانية». فهى – وإن كانت من عطاء الله .. وضمن ما وَهَبَهُ الله للإنسان عندما خَلَقَه؛ لكنه سبحانه، جَعَلَ لها صفات تَتَميَّزُ بها؛ هى الاختيار والحرية فهى تختار الأعمال والحوادث والأشياء، التى خلقها الله وسخرها للإنسان – يوجِّهُها بإرادته وبهذا الخيط الدقيق .. الذى هو الإرادة الإنسانية، تبرز أركانًا هامَّة، من قدرة الله ومشيئته وقضائه وقدره. فقد قَضَى وقَدَّر، أن تكون هناك دار آخرة .. وجنة ونار، وأشرار يدخلون النار، وأخيار يدخلون الجنة .. بناءً على أعمال فعلوها، نتيجة ما أعطاهم الله، من إرادة وعقل .. وقوى مختلفة. إذًا .. الأفعال والأحداث أو الحوادث من الله، لكن .. اكتسابُها وتوجيهها نحو الخير أو الشر، فهو من الإنسان.

فهل ينفى ذلك القول – أى أنه «لا فاعل إلا الله» – .. وجود حرية الإنسان مُتمثلةً فى إرادته الحرة، واختياره لكل أعماله ..؟.

وهكذا – بعد هذا التوضيح – نتفق مع عامَّة المسلمين وخاصَّتهم، من أنه لا فاعل إلا الله، وفى نفس الوقت .. لا إهدار لإرادة الإنسان واختياره ومسؤوليته عن كل أعماله. فهل هناك إجبار على الفِعْل ..؟ أو هل هنا ظلم..؟ أو هل هناك خوف على المصير ..؟ اللهم لا.

وهنا ينمحى أى نوع من أنواع الشك فى العدالة الإلهية. وتعالى الله علوًّا كبيرًا عن هذا كله ..

أما قَوْل «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن»؛ فهو حق وواضح أيضا فقد شاء أن يخلق هذا الكون، بما فيه من مخلوقات وشاء أن يكون ضمن مخلوقاته .. إنسان، له عقل وروح وإرادة حرَّة، وجسم يتحرك به فى هذا الكون. شاء الله

ذلك، ولا رادَّ لمشيئته. كما شاء أن يعبده كل شئ فى الوجود .. ﴿ **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ** ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وعلى قمته الإنسان، الذى أراد منه أن يسير فى طريق الخير والسلام. كما أنه – من جانب آخر – لم يشأ سبحانه أن يجعلنا ملائكة مثلاً، أو حيوانات غير ناطقة أو نباتات. أو جمادات .. أو هواء، أو أى شئ آخر غير الإنسان. كما أنه لم يشأ أن يخلقنا بدون عقل يستطيع أن يفكر ويعقل ويُدبِّر ويُريد، ومعه جسم يتحرك تبعًا لهذه الإرادة العاقلة. لم يشأ أن يجعلنا غير ذلك. «فواهب الوجود يَهَبُ الأنواع والأشخاص وجودها على ما هى عليه؛ ثم كل وجود متى حصل كانت له توابعُه .. ومن تلك الأنواع، الإنسان، ومن مميزاته حتى يكون غير سائر الحيوانات، أن يكون مفكراً مختاراً فى عمله على مُقتضَى فكره. فوجوده الموهوب مُستَتْبَعٌ لمميزاته هذه، ولو سُلِبَ شئ منها، لكان إمَّا مَلَكًا أو حيوانًا آخر .. والفرض أنه الإنسان» (١) . كذلك .. لم يشأ – مثلاً – أن يجعل آدم وحده فى هذا الوجود من نوع الإنسان، بل شاء أن يكون له ذرِّيَة .. تتكاثر حتى يوم الدين. هذا قضاء الله وقدره. ما شاء الله كان .. وما لم يَشَأْ لم يكن.

أما القَوْل بأنه سبحانه ﴿ **يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ** ﴾ فإننا لأول وَهْلة، قد نظن أن هذه العملية عشوائية .. تتم دون حساب .. وحاشا لله أن يكون ذلك فإننا إذا عرفنا، من هو الذى يشاء الله أن يُضلَّه، ومن هو الذى يشاء أن يَهديَه، ذهب عنا القلق الذى ينتابنا، عندما نقر أمثل هذه الآيات الكريمة .. التى قد يتبادر إلى أذهاننا، عند قراءتها؛ أننا لا نعرف ما إذا كنَّا من الذين سيهديهم الله أم من الذين سيضلُّهم. أو – بمعنى آخر – لا نعرف ما إذا كنَّا من المهتدين أو من المُضَلِّين. أو – بمعنى ثالث – أننا لا نعرف، من هو الذى

---

(١) الشيخ محمد عبده – رسالة التوحيد – ص ٤٩ – مطبعة صبيح – الأزهر – القاهرة – ١٩٦٥م.

سيختاره الله، لتَقَعَ عليه مشيئتُه بأن يكون من المُهتدين، ومن هو الذى ستقع عليه مشيئتُه، بأن يكون من الضالِّين. فترتعد قلوبنا من الخوف على المصير، لأننا لا ندرى .. أين سيكون حظُّنا. من المهتدين، أم من الضالِّين ..؟ وكأنَّ هذه العملية، تتم بطريقة عشوائية. لكن الأمر ليس كذلك أبداً، ولا يمكن أن يكون ذلك فى حق الله تعالى؛ لأنه لو حدث ذلك، يكون ظلماً. وحاشا لله من ذلك – وتعالى عن ذلك علواً كبيراً. لكنَّنا لا بُدَّ أن نتدبَّر ونفكر ونُحلِّل الأمـــر.

فمن هو الذى يشاء الله تعالى أن يُضلَّه، وَمَنْ هو الذى يشاء أن يُهْدِيَه ..؟ الذى شاء الله أن يُضلَّه، هو الذى سار فى طريق الشرِّ والعصيان .. وتمادَى فيه رغم نصائح الأنبياء والصالحين. فمشيئة الله تقضى على هذا الشخص، أن يظلَّ فى الضلال ويكون مصيره النار والعذاب. ومن يشاء أن يهدِيَه .. هو الذى سار ويسير فى طريق الخير والسلام. فمشيئة الله سبحانه، تقضى بهذا الشخص، بأن يزيده هُدَى، ويَهدِيَه بهداه، أى لا يَضِنُّ عليه بهداه ورحمته ويكون مصيره الجنة والنجاة، لأن سار فى الطريق السليم. وهذا كله هو ما يشاؤ الله. يشاء الخير لِمَنْ سارَ فى طريق الخير؛ ويشاء الضلال والعذاب، لِمَنْ سارَ .. واصرَ على السَّيْر فى طريق الشر والفساد. ﴿ **يُضِلُّ من يَشَاءُ ويَهْدِي مَن يَشَاءُ** ﴾. ولا يشاء الله إلاَّ ما فيه العدل والحق. ليس أى فرد يضلُّه الله .. وليس أى فرد يَهْدِيه الله؛ فهو سبحانه لا يشاء إلاَّ العَدْل، فهو الحَكَمُ العدَل. ولذلك فإنه لا يشاء الضلال إلاَّ للضالِّين المكذبين المفسدين المصرِّين على أخطائهم وكذلك لا يشاء الهُدى إلاَّ للصالحين المهتدين المؤمنين الصادقين.

هذا ما يشاؤه الله .. وهو ما قرَّرَه وقَدَّره منذ الأزل ﴿ ... **ويُضِلُّ اللَّهُ الظَّالمينَ ويَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ** ﴾ [ابراهيم: ٢٧]. ﴿ **إنَّ الَّذينَ لا يُؤْمنُون بآيَات اللَّه لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ ولَهُمْ عَذَابٌ أَليمٌ** ﴾ [النحل: ١٠٤]. ﴿ ... **واللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ**

الظَّالمينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ...﴾ [التوبة: ١١٥].

ونعود إلى الغزالى لكى نُناقشَهُ فيما أسماه «القضاءات الأربعة» السابق ذكرها (١). وهى الطاعات والمعاصى والنِّعَم والشدائد؛ فإننا لن نجد فى مفهوم الغزالى، إلاَّ أن كل شئ، قد رجع فى النهاية؛ إلى نوع من الجبرية. فعندما ننظر بفكرنا ونتدبر فإنه يمكن القَوْل، أن نَوعَيْن فقط من هذه الأمور الأربعة هما حقًّا قضاءً إجباريًّا من الله .. وهما الشدائد والنِّعَم، لأنه ليس للإنسان فيهما اكتساب أمَّا الطاعات والمعاصى .. فإذا قلنا إنها من قضاء الله وقَدَرِه – دون أن نُلْحِقَ ذلك بالعلم الإلهى السابق – ظهر فيها معنى الجبرية. وذلك لأننا لم نبيِّن أنها «قضاء اختيارى»، بمعنى أنه كَسْبٌ من الإنسان، داخل دائرة القضاء الإلهى الأعظم، الذى قضى فيه، بأن يكون للإنسان إرادة حرَّة، يكتسبُ بها الطاعات والمعاصى. فيكون بذلك، هذا النوع من القضاء والقدَر، بمعنى العلم الإلهى السابق .. بما سوف يكتسبه كل إنسان.

فحين يقول الغزالى .. إن قضاء الطاعات، إذا كان الإنسان فى الطريق المستقيم .. فإنه يستقبله بالجهد والإخلاص. فكيف إذًا .. يكون مقضيًّا على إنسان أن يفعل كذا، ثم بعد ذلك، تكون مهمته فقط، إستقبال هذه الطاعة بالجهد ..؟ ثم إذا قضي بالمعاصى. فعليه أن يستقبلها بالاستغفار والدعاء. ومعنى ذلك أن يفعل الإنسان المعاصى، ثم يقول .. إنه مَقْضِىٌّ علىَّ بها .. وما علىَّ إلاَّ أن أستغفر الله عند حدوثها .. كما قال الكافرون من قبل. ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]. إن جوهر هذا الرأى للغزالى، هو

---

(١) ص ١٤ من هذا الكتيب.

سَلْب الأعمال عن الإنسان، وَجَعْله فقط .. متابعًا لما حُكِمَ به عليه من الله سبحانه مُسبَّقًا؛ وبالتالى سَلْب المسؤولية. ولكن الله تعالى يقول: ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ** ﴾ [المدثر: ٣٨]. أى تكون كل نفس «معتقلة بعملها يوم القيامة. قاله ابن عباس وغيره» (١). وهذا يعنى أن مصير كل إنسان، مرهون بما اكتسبه من أعمال فى حياته. فإن كان ما اكتسبه خيراً .. كان مصيره الجنة، وإن كان غير ذلك .. فمصيره إلى النار.

وأما فكرة الجهد والإخلاص من الإنسان عند الطاعات، فهى واردة ولا أحد ينكرها وهى من النصَائح الإلهية؛ ولكنها ليست فقط، لاستقبال الطاعات، بل إنها للوصول إلى الطاعات. وهى حَصْن من الله سبحانه لعباده، كما قال: ﴿ **وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ** ﴾ [العنكبوت: ٦]. وذلك كما يعلمه الله تعالى، من قصور العقل والقوى الإنسانية، وسط الانغماس فى متاهات المادَّة والمشاغل الدنيوية. فقد أراد الله بتلك النصائح، هداية الإنسان إذًا لأنه لو كانت الأفعال مَقْضىٌّ بها علىَّ .. قضاءً جبريًّا، فلماذا إذًا تكون هذه النصائح ..؟ ولماذا يكون الرسُل صلوات الله عليهم وسلامه ..؟ ولماذا تكون أوامر الله ونواهيه ..؟.

وأما فكرة الاستغفار والتوبة: التى يقول الغزالى، إنها الطريق المستقيم للإنسان، ليقابل بها المعاصى؛ فإن الاستغفار والتوبة، ليسا إلاَّ اعتذاراً إلى الله خالقنا، عندما ينسى الإنسان ربه .. عندما ينسى واجبه فى الحياة، وسط متاهات الحياة. فعند ذلك، يكون الاستغفار والتوبة والنَّدَم، هى الأحوال التى يناجى بها الإنسان ربَّه، ليعتذر عمَّا فعله من أخطاء، وأنه لن يعود إليها أبداً، لأنها من فعله واكتسابه، وأنه مسؤول عنها. وشتَّانَ ما بين ذلك، وبين أن أنتظر المعاصى .. ثم أقول أنها مقضىٌّ بها علىَّ، ثم أقابلها بالاستغفار دون أن أجاهد منذ البداية للابتعاد عنها.

---

(١) ابن كثير – تفسير القرآن العظيم جـ ٤ ص ٤٤٧.

إننا لا نشكُّ فى اتجاه الغزالى السليم، إلاَّ أنه لم يوضح الصلة بين قضاء الله سبحانه والعلم الإلهى. وسوف نلقى مزيداً من الضوء على هذه النقطة بعد قليل. كما لم يوضح العلاقة بين القضاء والقدر وأعمال الإنسان الحرَّة. فَتَرْكَ هذه النقاط فى غموض، وهى من أهم الأمور التى يلتبسُ فهمها على الناس.

وهناك تساؤل، يتصل بمعنى اللطف الإلهى والدعاء الإنسانى، الذى وَجَّهَنا الله إليه سبحانه. فنتساءَلُ عمَّا إذا كان هذا الدعاء والاستجابة له من الله – حسب الشروط التى حددها الله تعالى – يُغيِّرُ ممَّا هو مدوَّن باللوح المحفوظ، والذى يَعْلَمُه الله بأنه سيحدث من المخلوقات .. أم أن الله تعالى يغيِّرُ فقط، فى الأمور المقضىُّ بها منه قضاءً جبريًّا .. مثل مدّ الأجل .. أو تخفيف المصائب .. إلخ ..؟ أم أن هذا يدخل فى دائرة العلم الإلهى الأزلى السابق ..؟.

هذه إذًا .. لمحات فى مناقشة وتحليل رأى الغزالى، فى مشكلة القضاء والقدر .. لعلها تكون قد أَلْقَتْ شيئًا من الضوء على مفهوم هذه المشكلة .. وشيئًا من الاطمئنان فى النفوس.

* * *